النموذج الإسلامى فى التنشئة الاجتماعية

بقلم: أ.د. نبيل السمالوطى(*)

الإسلام وقضية التنشئة الاجتماعية

يهتم الدين الإسلامى الحنيف اهتمامًا بالغًا بالعملية التربوية شكلاً ومضمونًا، من أجل صياغة الشخصية الإسلامية المتكاملة، والتى تتمتع بالصحة الجسمية (الخلو من الأمراض)، والصحة النفسية (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)، والخلو من الاضطرابات والصراعات النفسية، والقدرة على أداء رسالته التى خلق من أجلها، وهى العبادة والتعارف وتعمير الأرض والعمل والإنتاج، والقدرة على تكوين علاقات اجتماعية راضية مرضية مع الآخرين. وهذه أسس الصحة النفسية الحقة. وقد استوجب الإسلام على الآباء حسن تربية الأبناء -ذكورًا وإناثًا- من أجل إعدادهم لكى يكونوا مواطنين صالحين؛ ضمانًا لصلاحية الأسرة والمجتمع العام كله. وقد جاء تأكيد الإسلام على كرامة الإنسان وعزته، فلله العزة ولرسوله والمؤمنين فى وجه الرذائل التى كانت ترتكب فى حق الأبناء فى الجاهلية، من وأد للبنات، أو قتل للبنين والبنات معًا تحت تأثير الفقر، أو تخلصًا من عبء التربية، أم تحت تأثير معتقدات زائفة، مثل الاعتقاد بأن البنت رجز من خلق الشيطان، أو من خلق إله غير آلهتهم، وأن مخلوقًا هذا شأنه يجب التخلص منه.. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا.

وقد استوجب القرآن الكريم تحريم هذه العبادات والمعتقدات الزائفة... ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾[الإسراء:٣٩-٤٠].

(*) أستاذ علم الاجتماع بجامعة الأزهر، ومقرر لجنة الندوات والمؤتمرات بالرابطة.

ويشير الرسول ﷺ إلى ضرورة الحفاظ على الفطرة الإنسانية النقية، فقد خلق الله -سبحانه تعالى- عباده حنفاء، ويجب الحفاظ على الفطرة التى خلق الله الناس عليها. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٧٢].

وينطلق الاهتمام الإسلامى بالتربية إدراكًا لأهميتها فى تشكيل الشخصيه، من الحفاظ على الفطرة أو من تشويهها وضياع أثرها. ونستطيع أن ندرك عظمة الإسلام إذا أدركنا أساليب المجتمعات السابقة على الإسلام فى التربية، فإلى جانب رذائل الجاهلية من وأد للبنات وصياغة الشخصية الماجنة المتغطرسة، فقد كانت نظم إسبرطة -فى اليونان القديمة- توجب على الآباء إعدام أولادهم الضعاف أو المشوهين أو المرضى عقب ولادتهم، أو تركهم فى القفار طعامًا للوحوش.

التنشئة الاجتماعية كعملية اجتماعية

يعيش الإنسان منذ آدم -عليه السلام- حتى الآن داخل جماعات تعددت أسماؤها، ويرتبط بعلاقات متعددة مع الآخرين حوله، ويدخل معهم فى تفاعلات. ويطلق على هذا التفاعل الاجتماعى مصطلح "العمليات الاجتماعية". وتتعدد أشكال التفاعل ونوعية العمليات الاجتماعية، وهناك من العمليات ما يجمع ويطلق عليها "العمليات المجمعة Associative Processes"، كالتعاون والإخاء والزواج. ومنها ما يؤدى إلى التشتت والتنافر، وهى العمليات المفككة Dissociative. وتعتبر التنشئة الاجتماعية Socialization من أهم العمليات الاجتماعية وأخطرها شأنًا فى حياة الفرد؛ لأنها الدعامة الأولى التى ترتكز عليها مقومات شخصيته، وتبدأ هذه العملية منذ ولادة الطفل، فهو فى بداية وجوده فى الحياة لا يعدو أن يكون بناءً بيولوجيًا يتضمن مجموعة من الدوافع والاستعدادات، وهنا تقوم الأسرة بدور مهم وأساسى فى إكسابه

خصائص مجتمعه، حيث تعلمه لغة الجماعة وعاداتها وعرفها وتقاليدها وعقيدتها وآدابها، وتتعاون الجماعات الأخرى (جماعات المدرسة والمسجد واللعب ومختلف الهيئات التي ينتمي إليها الفرد...) مع الأسرة، حيث تكمل وظيفتها في التنشئة الاجتماعية.

وإذا كان الطفل لا يولد «إنسانًا اجتماعيا»، فإنه يجب على المجتمع -من خلال مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية- صقله وترويضه وتعليمه حتى يمكن الحفاظ على فطرته السليمة، وإبراز جوانب إنسانيته الحقة. ويطلق على هذه العملية التي يتم من خلالها تكيف الفرد خاصة الطفل: «البيئة الاجتماعية» عملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي. وهي في جوهرها عملية تربية وتعليم، يقوم بها الآباء والمعلمون وغيرهم ممن يمثلون ثقافة المجتمع، وهي عملية تستهدف تعليم الفرد الامتثال لمطالب المجتمع، والاندماج في ثقافته، واتباع تقاليده، و الخضوع لالتزاماته، ومجاراة الآخرين بوجه عام. وتعد التربية الاجتماعية والعقائدية والخلقية التي يقوم البيت والمدرسة بأكبر جانب منها هي جوهر هذه العملية.

وإذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة من المهد إلى اللحد، فإنها تحتل أهمية كبرى في مرحلة الطفولة. ومما يجب أن يتعلمه الطفل:

١- المشي والفطام وضبط المثانة والأمعاء في مرحلة الطفولة المبكرة، والاستحياء الجنسي، وكف العدوان عن الإخوة والأبوين والكبار في الكثير من المجتمعات.

٢- القدرة على كف دوافعه غير المرغوبة أو الحد منها. ومما يجدر ذكره أن القدر الأكبر من عملية التنشئة الاجتماعية يتمثل أساسًا في إقامة حواجز وضوابط في مواجهة الإشباع المباشر للدوافع الفطرية، كالدافع الجنسي، ودافع المقاتلة والعدوان، وهي ضوابط لابد منها لقيام المجتمع السوي وبقائه؛ ولهذا فإن هذه الضوابط توجد داخل كل المجتمعات حتى أكثرها بدائية.

٣- تعلم العقيدة والقيم والآداب الاجتماعية والأخلاقية، وتكوين الاتجاهات المعترف بها داخل المجتمع، نحو الأسرة والمدرسة والدين والسلطة، إلى جانب التنميط الجنسى Sex Typing، حيث إعداد الذكور لممارسة أدوار الرجال، وتوجيه الإناث لممارسة أدوار الإناث (طهى وغسل وممارسة دور ربة البيت..) على حسب قيم المجتمع ومعتقداته.

٤- القدرة على التوقيت المنظم، أو القيام بأعمال معينة فى أوقات محددة، كالأكل والنوم، والذهاب للمدرسة، وأداء الواجبات، ....إلخ.

وإذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية تعلم الطفل كيف يمتنع عن تحقيق بعض دوافعه الفطرية بشكل فج، فإنها تعينه على تحقيق كثير مما يريد بالأساليب الشرعية، التى يرضى عنها الدين والمجتمع. وخلال هذه العملية تمنع الطفل من القيام بأعمال يميل إليها، وتوجهه إلى ضرورة القيام بأعمال لا يميل إليها بطبعه. فإن أراد أن يتجنب عقاب الكبار وأن يظفر برضائهم عنه وما يعدونه له من ثواب، فعليه الامتثال لأوامرهم، وهى ما تعرف باسم الضمير، ومتى تكوّن الضمير أصبح الفرد يحمل داخله مقومات الثقافة الاجتماعية والعقائدية والخلقية للمجتمع الذى يعيش فيه.

ولا تقتصر عملية التنشئة الاجتماعية على الأسرة، وإنما تمتد لتمارس فى المدرسة وخارج المدرسة، فى المسجد ودور العبادة، والملعب والنادى، والجمعيات والمنظمات، وأثناء التفاعل الاجتماعى بالآخرين فى السوق والشارع والاحتفالات والعمل...إلخ، غير أن التطبيع الاجتماعى يكون أكثر تركيزًا ووضوحًا وقصدًا خلال مرحلة الطفولة المبكرة عنه فى أية مرحلة أخرى من مراحل النمو.

الطفولة المبكرة ومحور الأسرة خلال مرحلة التنشئة الاجتماعية

يؤكد علماء النفس والتربية بصفة عامة، وأنصار مدرسة التحليل النفسى بصفة

خاصة، على أهمية مرحلة الطفولة المبكرة من لحظة الميلاد حتى سن ست سنوات، من حيث ثبات الخبرات والتجارب التى يعانيها الطفل وظهورها بجلاء على شخصيات الراشدين، فبذور الصحة أو المرض النفسى توضع فى هذه المرحلة. وقد سبق أن نبهنا الرسول ﷺ إلى أهمية التربية فى الحفاظ على الفطرة السليمة أو فى تشويهها وتزييفها وإضعافها. ويؤكد علماء النفس التحليلى ضرورة اتباع أساليب فى التربية تؤدى إلى نمو شخصية الطفل نمواً سويا، مثل الرضاعة من ثدى الأم، وعدم الضغط على الرضيع بالتسرع فى إجباره على ضبط أمعائه ومثانته، وعدم فرض مواعيد صارمة للطعام. وعلى الرغم من أن بعض العلماء مثل "آورلانسكى" يؤكدون أنه لا توجد دلائل حاسمة تثبت أن الأطفال الذين يرضعون من ثدى أمهاتهم أحسن توافقًا مع غيرهم ممن يرضعون ألبانًا صناعية، إلا أن الدين الإسلامى الحنيف يؤكد أن الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وسبحان الله إذ جعل لبن الأم أحسن غذاء للطفل، يتطور مع نمو الطفل ولا يضارعه أى نوع من الألبان الصناعية. وقد درست إحدى العالمات مسألة القماط وأثره على شخصية الطفل، وانتهت إلى القول أن مثل هذه التفصيلات ليس لها أثر واضح على سمات الشخصية، وأن الذى يحتل أهمية كبرى فى هذا الصدد مجموعة المواقف العادية أو الصدمية التى يتعرض لها الطفل وأسلوب إشباع حاجاته أو إعاقتها. وهذا يعنى أن استواء شخصية الراشد أو انحرافها يتوقف على نوع المعاملة التى يلقاها الطفل وسط أسرته أولاً، ثم خبراته من جماعات الأصدقاء والمدرسة والنادى، وما إذا كان محبوبًا يشعر بتقبل الآخرين له أم لا....إلخ.

وقد كشفت مختلف الدراسات عن أهمية العلاقات الأسرية فى تنمية شخصية الراشد خلال مرحلة الطفولة. وقد قام بالدين بدراسة أثر العلاقات الأسرية على شخصية الأطفال، وخرج بأن العلاقات الديمقراطية التى تتيح للطفل حرية التعبير عن رأيه والمناقشة والفهم والإقناع والاقتناع، تؤدى إلى ظهور أطفال يتسمون بالنشاط

والقدرة على اقتحام المواقف بشجاعة تظهر لديهم الميول القيادية، ويحبون الاستطلاع، وذلك على عكس العلاقات الأسرية الدكتاتورية التسلطية، التى تؤدى بالأطفال إلى الهدوء المفرط الغير سوى، والانعزال وعدم القدرة على التفاعل الإيجابى فى المواقف والاتسام بالخوف، وتشير الدراسات السلوكية أن أغلب مخاوف الأطفال النوعية مكتسبة من الجو الأسرى والجماعى الذى يعيش فيه الطفل. فالأطفال لا يولدون بمخاوف محددة، وأن الطفل حديث الولادة لا يظهر الخوف إلا من الأصوات المرتفعة وفقدان السند، فكل ما يخاف منه الأطفال والراشدون يكتسب من البيئة بالتعلم، وخاصة التعلم الشرطى خلال مرحلة الطفولة، فالطفل الذى يعانى من خبرة مفزعة أو غير سارة من شىء أو شخص أو موقف أو حيوان.... فإنه يميل إلى تعميم التجربة واستمرار الخوف من هذه الأشياء والأشخاص والمواقف فى المستقبل. ويمكن التمثيل لهذا بخوف بعض الأشخاص من الكلاب أو من الامتحانات بشكل مرضى. ويجب التنبيه هنا -من الناحية التربوية- إلى خطورة تخويف الأطفال بشكل مفزع من بعض الأشياء أو الأشخاص، كما أن مضامين القصص التى تُروى للأطفال يجب أن تخلو من الخيالات المفرطة، أو أساليب الفزع والتخويف، ويجب أن تشبع حاجات الأطفال إلى القصص بقصص الأنبياء والرواد الأوائل من المسلمين وبطولات القواد المسلمين....إلخ. ويجب التدقيق فى اختيار مضامين وأساليب قصص الأطفال؛ لما تمارسه من أثر غير عادى على شخصياتهم مستقبلاً. ويجب على المربين والمعلمين أن يوجهوا اهتمامًا كبيرًا لمساعدة الأطفال على التخلص من مخاوفهم التى يكونون قد اكتسبوها من أسرهم أو جماعات الرفاق، أو نتيجة لبعض الخبرات غير السارة، ويكون ذلك بأن يقترن الموقف المختلف فى نظر الطفل بخبرة سارة مناقضة للخبرات السابقة. فالطفل الذى يخاف بشكل مرضى من الامتحان، يجب أن يمر بتجربة امتحانات فى جو أسرى أبوى؛ حتى يعرف أن الامتحان شىء لا يخيف. وقل مثل هذا عن المخاوف الشاذة من بعض الحيوانات غير المخيفة والكلاب، وبعض الأشياء غير المخيفة مثل الماء أو بعض الأطعمة...إلخ.

وعادة ما يكون الطفل محايداً إزاء الأفكار والمعتقدات، فالطفل يولد على الفطرة، ولا يكون متعصبًا لشىء ما، وهو يكتسب مختلف اتجاهاته إزاء المعتقدات والأفكار والأشياء والأشخاص، كما يكتسب قيمه من البيئة الاجتماعية المحيطة به، خاصة الوالدين، وذلك بطرق مقصودة أو غير مقصودة، شعورية أو غير شعورية، فالطفل الذى ينشأ فى وسط إسلامى يكتسب عقيدته الإسلامية من البيئة المحيطة به، فهو يصلى كما يصلى والده، ويكتسب مختلف أركان العقيدة أولاً بالتقليد، ثم ستدمجها فى نفسه وتصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصيته. وهكذا تتكون الاتجاهات والقيم والمعتقدات. وقل مثل هذا عن الطفل الذى ينشأ فى بيئة منحرفة عقائديا كالبوذية والهندوسية...إلخ.

وقد كشفت مختلف البحوث النفسية والاجتماعية أن ضمير الفرد وفكرته عن نفسه وأسلوبه الخاص فى معاملة الناس وفى مواجهة المشكلات، وما يكتسبه الفرد خلال مرحلة الطفولة من اتجاهات دينية وقومية وسلالية، تظل عالقة بضميره ويصعب تغييرها فى الكبر- أقول يصعب ولم أقل يستحيل، ذلك أن الإنسان الذى ربى على معتقدات زائفة، مثل كل المعتقدات غير الإسلامية، ثم عرف الإسلام وكان فى متناوله كتاب الله وسنة نبيه، فعليه أن يترك الشرك ويعتنق عقيدة التوحيد. غير أن هذه العملية ليست بالسهولة المتصورة، فهى محتاجة إلى جهود الدعاة المخلصين.

وقد كشفت الدراسات المختلفة أن اتجاهاتنا نحو الناس وصلاتنا العاطفية بهم، هى اتجاهات وصلات تعلمناها فى محيط الأسرة. وترجع اتجاهاتنا نحو الرؤساء والمرؤسين والأصدقاء والزملاء والزوجة والأولاد والغرباء... جميعًا إلى طبيعة الاتجاهات والصلات التى خبرناها داخل أسرنا. وتؤكد البحوث الإكلينيكية أن الأسر التى تسودها علاقات الود والاحترام والثقة والحب تخرج أطفالاً راشدين أسوياء، أما الأسر التى يسودها التفكك وانعدام الثقة والصراعات تخرج أطفالاً راشدين مرضى ومنحرفين. فمن يحرم من الحب والثقة والعطف فى الطفولة، يرفض تقبل العطف

والحب من الآخرين، كما يعجز عن منح أطفاله الحب والعطف والأمن....، ومن يشب على الهروب من المشكلات يشب على الخنوع والخوف وعدم القدرة على مواجهة المشكلات. وقد كشفت الدراسات الإنثروبولوجية عن العلاقة الوثيقة بين عمليات ومضامين التنشئة الاجتماعية خلال مرحلة الطفولة المبكرة، وبين خصائص شخصية الراشدين، فالذكور فى قبيلة «أرابش» ينشأون على الوداعة والمسالمة والتعاون والصداقة ونبذ السيطرة والعدوان والغرور؛ نتيجة ما تمنحه الأم للطفل من رعاية ومودة وعطف واضح وإطالة مدة الرضاعة، وما يمنحه المحيطون بالطفل له من عناية بالغة. ونجد نموذجًا متناقضًا لهذا تمامًا بين أعضاء قبيلة «موندجومر» المجاورة للقبيلة السابقة. فمضمون عملية التنشئة الاجتماعية فى تلك القبيلة تؤدى إلى تشكيل الشخصية العدوانية المرتابة دائمًا، التى تفقد الثقة بالنفس والآخرين.

المراحل التى يمر بها الطفل خلال عملية التنشئة الاجتماعية

على الرغم من أن التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة من لحظة الميلاد حتى نهاية الأجل المحتوم، إلا أن مرحلة الطفولة المبكرة تحتل أهمية بالغة فى هذا الصدد -كما سبق أن أشرت- لدرجة أن بعض الباحثين يؤكدون أن بذور الصحة النفسية أو المرض النفسى والانحرافات المختلفة، تُوضع بذورها خلال هذه المرحلة. ويمكننا أن نصنف هذه المرحلة إلى ثلاثة مراحل من منظور عملية التنشئة الاجتماعية.

المرحلة الأولى:

يتعلم الطفل خلالها كيف يتكيف مع مطالب جسمه وحاجاته البيولوجية وظروف البيئة المحيطة به، وهو مضطر فى هذه المرحلة إلى قبول المعانى التى حددها الراشدون من حوله للمواقف التى يمر بها كما يظهر ذلك فى معاملتهم له.

ومعنى هذا أن الطفل يكيف نفسه لسلوك الكبار، وعلى الرغم من أن مقاومة وفاعلية الطفل عادة ما تكون ضعيفة جدًا خلال هذه المرحلة، فإن هذا لا يعنى أنه يقف

موقفًا سلبيًا تمامًا. فالطفل يستجيب للمواقف المختلفة بكل حواسه، وتتحدد بالتدريج بعض أنماطه السلوكية نتيجة لما يترتب على استجابته من نتائج أو نتيجة لسلوك الكبار إزاء استجابته للمواقف، فيتعلم بالتدريج أن يستبعد بعض الأنماط السلوكية التى تسبب له الأذى، أو التى تفشل فى إشباع حاجاته البيولوجية المحددة.

وهو يتعود بالتدريج أن يركز نشاطه على جوانب محورية فى المواقف التى يتفاعل معها ويتحدد سلوكه ويتركز نحوها، لذلك يمز سلوكه بعملية تمايز مستمرة.

ويحدث هذا نتيجة عملية سلوك إدراكى نحو الجوانب المحورية فى المواقف التى يمر بها، وتصبح هذه الجوانب تمثل إشارات أو دلالات يستجيب لها الطفل فى الموقف الكلى، ويكرر استجابته لها بتكرار ظهورها. وهو بهذا الشكل يكوِّن اتجاهه نحو الأشياء المحيطة به، وبهذا الشكل يبدأ عملية الاستيعاب والاستدماج وتشكيل القيم، وتبدأ شخصية الطفل فى التكوين والتشكيل وتتحدد ملامحها الأساسية.

ونستطيع القول أن استجابة الطفل للعلامات والإرشادات هى فى جوهرها استجابات للمعانى التى حددها الكبار لها سلفًا، فثدى الأم يعنى الرضاعة وإشباع حاجة بيولوجية، ومد الأم يدها نحو الطفل معناه رفعه وحمله،...إلخ، وهكذا يكتسب الطفل المعانى الاجتماعية التى حددتها له الجماعة. غير أن موقف الطفل إزاء هذه الأمور ليس سلبيا تمامًا ؛ ذلك لأن حساسيته البالغة للمثيرات الداخلية والخارجية تؤدى إلى ظهور استجابات متباينة، تساعده على التكيف مع بيئته والتأثير فى هذه البيئة من أجل إشباع حاجاته البيولوجية، فهو مثلاً يحاول استدرار عطف أمه واستقدامها عن طريق الصراخ أو البكاء أو الحركة المستمرة..إلخ، والأمهات يعرفن كيف أن سلوكهن يتعدل بدرجات متفاوتة بحسب سلوك الطفل أو بحسب ما يفهمونه من دلالات معينة يضفونها على هذا السلوك. غير أن المثيرات (العلامات) والاستجابات ورد فعل الطفل إزاء هذه العلامات سلوكيا لا تسير باستمرار فى اتساق كامل، الأمر الذى يؤدى بالطفل إلى محاولة تغيير سلوكه وتغيير توقعاته. ومثال هذا:

أن اقتراب الأم من الطفل يعنى رفعه وإرضاعه، غير أن هذا لا يحدث فيصاب الطفل بالإحباط، وقد يكون رد فعله هو الصراخ والبكاء، وقد يفلح بهذه الطريقة فى إجبار الأم على حمله وإرضاعه، وقد لا ينجح. وهذا يعنى أن سلوك الطفل يتعدل بتعديل توقعاته بالنسبة للعلامات التى يستجيب لها.

ويمكن القول أنه إذا ما استقرت عادات الطفل بتكرار الاستجابة للعلامات أو المثيرات بشكل ثابت على مدى فترة زمنية طويلة، فإن التغيير المفاجىء يحدث أثراً بالغ السوء فى نفس الطفل. ومثال هذا الفطام المفاجىء بأساليب مؤذية، مثل وضع مادة لاذعة أو مرة على ثدى الأم، فبعد أن كان الثدى مصدر إشباع حاجة بيولوجية، ومصدر أمن وراحة للطفل، يصير مصدر فزع وإحباط وحرمان؛ ولهذا فإن خبراء التربية وعلم الاجتماع والنفس ينصحون الأمهات بضرورة مراعاة الأسلوب التدريجى فى الفطام، وتعليم الطفل ضبط الأمعاء والمثانة...إلخ.

وتشير دراسات علم النفس العيادى (الإكلينيكى) إلى خطورة الصراعات النفسية الحادة التى يعانيها الأطفال، نتيجة الخبرات الصدمية وتغير التوقعات والإحباطات التى يعانون منها خلال مرحلة الطفولة المبكرة، ونتيجة لتذبذب الكبار فى معاملتهم، وأن هذه الصراعات والخبرات الصدمية هى التى تضع بذور الانحرافات النفسية والأمراض العصابية. ومما يزيد من حدة وخطورة هذه المسألة القصور اللغوى للطفل، فالطفل فى هذه المرحلة لا يكون قد تعلم بشكل كاف كيف يعبر عن نفسه لغويا، ولا كيفية التعبير عن اعتراضاته والتفاهم مع مجتمع الراشدين، كذلك فإنه لا يعرف كيف يفكر التفكير الذى يحل له مشكلاته؛ لعدم نمو قدراته العقلية بشكل كاف، ولعدم تمكنه من اللغة التى هى أداة التفكير.

المرحلة الثانية:

وتعد هذه المرحلة امتداداً للمرحلة الأولى، وتبدأ بتعلم الطفل الانتقال فى المكان من خلال تعلم الحبو والمشى بتعثر، ثم المشى بحرية، ثم الجرى، وهذه القدرة على

الحركة تمنح الطفل قدرًا أكبر من الحرية فى التعامل مع الأشياء، بعيدًا عن رقابة مجتمع الكبار. ولعل المشكلة هنا هى أن الطفل ينقل خبراته فى المرحلة الأولى إلى هذه المرحلة، فيلقى استجابات مختلفة من الكبار نتيجة لاختلاف المواقف مما لا يفهمه الطفل، الأمر الذى يعرضه لصراعات تجبره على تغير توقعاته واستجاباته بأنماط سلوكية جديدة حتى يتوافق مع مجتمع الكبار. ومثال هذا: الكبار يقدمون للطفل فى المرحلة الأولى أشياء يضعها فى فمه (يأكلها)، أو يلعب بها فتحدث صوتًا مرتفعًا، فى كلا الأمرين يستجيب لها الكبار (فى حالة الأكل أو اللعب) بالفرح والرضا. ومن الطبيعى ألا يقدم الكبار للطفل شيئًا يضره. وعندما يتعلم الطفل الحركة فى المكان يمسك بأشياء يضعها فى فمه، وقد تكون ضارة له، ويمسك بأشياء ثمينة يكسرها، وهنا يتوقع -كما كان الحال فى المرحلة الأولى- أن يفرح الكبار ويرضوا عنه، إلا أنه يصاب بصراع عندما يلقى من الكبار الزجر والنهى والسخط والضرب أحيانًا خوفًا على الطفل، ولكنه لا يعلم ذلك. ومعنى هذا أن كثيرًا من عادات وأفعال الطفل التلقائية فى هذه المرحلة تجد مقاومة من الكبار الذين يتدخلون لمنعه، الأمر الذى يحدث صراعًا بين الطفل و الكبار من منظور الطفل نفسه، وقد يتحول هذا إلى صراع فى نفسية الطفل نتيجة للتناقض الذى يحدث حول معانى الأشياء المستمدة من خبراته السابقة، وهذه الاستجابات الجديدة من قبل الكبار تؤدى إلى ضرورة تعديل سلوك الطفل بحسب قيم الكبار وعاداتهم والمعانى التى صوروها للمواقف المختلفة التى يواجهها الطفل فى حياته. فبعد أن كان تناول أى شىء يقدم للطفل فى المرحلة الأولى يسبب فرحًا للكبار ويسبب رضاءهم عنه، فإن تناول أى شىء يقع فى يد الطفل -خلال المرحلة الثانية- قد يُقابل بضرب وعنف وسخط الكبار؛ لأنه يسبب الأذى للطفل، ويمكن للطفل هنا أن يعدل توقعاته وسلوكه بمساعدة الكبار، غير أنه إذا ما ازداد الآباء عنفًا على الأبناء نتيجة لعدم الوعى أو بسبب سوء العلاقات بين الأبوين، أو بسبب أمراض نفسية عصبية يعانى منها الآباء، فإن هذا يزيد من حدة

الصراعات النفسية للأطفال، بسبب التذبذب فى التعامل، فيعجز الطفل عن تحديد ما يسبب رضاء الآباء أو سخطهم، فالسلوك الواحد قد يُثاب عليه حينًا، ويُعاقب عليه حينًا آخر. وقد أوضحت الدراسات الإكلينيكية عن أن هذه المشكلة قد تسبب انحرافات سلوكية واضحة فى حياة الطفل المستقبلة، خاصة وأن النمو اللغوى للطفل مايزال قاصراً فى هذه المرحلة كذلك.

المرحلة الثالثة:

يؤكد "جورج ميد" أن مفتاح هذه المرحلة هو نمو القدرة اللغوية عند الطفل، فالكلمات رموز وعلامات تشير إلى أشياء فى مواقف معينة، وتشير إلى دلالات محددة، ونمو اللغة عند الطفل يعنى قدرته على التفكير الذى يتم من خلال اللغة، وفى هذه المرحلة يكتسب الطفل اتجاهات الكبار نحو المواقف المهمة فى حياة الطفل. فحتى يسلك الطفل السلوك الذى يرضى عنه الكبار لابد أن يستدمج اتجاهاتهم وقيمهم ومفاهيمهم إزاء المواقف الحياتية التى يتعرض لها، وهذا ما يحدث خلال هذه المرحلة. وأساس هذا هو نمو الطفل عقليا ولغويا، وعن طريق اللغة يتمكن الإنسان من تحديد سلوكه سلفًا بالنسبة لمواقف مستقبلة، وهذا هو أساس عملية التفكير. فاللغة سلوك لفظى يرتبط بمواقف واقعية يواجهها الطفل فى حياته اليومية ويسلك نحوها سلوكًا معينًا، ويمكن من خلال اللغة نقل ما تحمله الألفاظ من معانى من موقف إلى آخر، أى يمكن تعميم الخبرة وتعميم سلوك الطفل نحو المواقف المتشابهة. فكلمة «أحسنت» عندما تُقال للطفل بمناسبة سلوكه سلوكًا حسنًا يرضى عنه الآباء، تنسحب فى ذهن الطفل على كل سلوك يرضى الآباء، وقل نفس الشيء عن كلمة «أسأت». ويصبح استدعاء اللغة المرتبطة بالمواقف عاملاً يساعد الطفل على استدعاء الجوانب المختلفة للمواقف، كما يمكن أن تستدعى الموقف اللغة التى ارتبطت به، ومثال هذا أن الطفل يميل إلى اللعب بأى شيء يقع فى مجاله الحسى أو يضعه فى فمه، فإذا ما شاهد كأسًا زجاجيًا فإنه يقذف بها على الأرض فتنكسر فيفرح الطفل لما أحدثه الكأس من

صوت، غير أن الأم تقابل الطفل بعلامات الاستياء وتقول له: أسأت. ومع تكرار هذا الموقف يتعدل سلوك الطفل، فعندما يشاهد كأسًا أو شيئًا زجاجيا يستدعى كلمة «أسأت» التى سمعها من أمه يدرك الكأس على أنه شىء للشرب فيه وليس للإلقاء على الأرض...إلخ. وتصبح الكلمة المستخدمة هنا قادرة على استرجاع الخبرة، ومعنى هذا أن اكتساب الكلمة واسترجاعها يقوم مقام الأم فى توجيه أو ضبط سلوك الطفل، وهذا هو الأساس الأول فى تكوين الضمير الأخلاقى للطفل الذى يتكون من مجموعة الأوامر والنواهى والتعليمات والقدوة الحسنة للآباء أمام الأطفال والعكس، وهذا هو أساس نمو القدرة على الضبط الذاتى للطفل. وكلما ازدادت الحصيلة اللغوية للطفل بزيادة خبراته، نما ضميره وتقدمت قدرته على ضبط نفسه واستيعاب اتجاهات الآخرين ومعتقداتهم ومفاهيمهم وقيمهم...إلخ. ومن خلال اللغة نستطيع نقل خبرات متعددة إلى الطفل واختصار خبرات الآخرين له، وبالتالى توفير الكثير من الوقت والجهد، وبهذا الشكل يستطيع الكبار -باستخدام ألفاظ ودلالات أو معانى خاصة من خبرات سابقة- أن يغرسوا فى نفس الطفل اتجاهات سلوكية خاصة بالنسبة لمواقف لم يخبرها الطفل فعلاً، مثل حب الله ورسوله وحب الصحابة وحب عقيدة التوحيد، وحب الصلاة، وحب الصيام والزكاة، والتشوق لزيارة الأماكن المقدسة...إلخ، وذلك من خلال اللغة التى من خلالها يُتلى القرآن الكريم، وتتم الصلاة، وعن طريق القصص الدينى المشوق وقصص البطولات الإسلامية...إلخ. وبهذه الأساليب يتعلم الطفل معتقدات آبائه وقيم الأسرة واتجاهاتها ومعاييرها الخلقية، ومن خلال أساليب الاستحسان والاستهجان والمدح والذم والثواب والعقاب، يمكن للآباء تحديد الميول الاجتماعية والمهنية لأبنائهم مستقبلاً.

وتعلم الطفل اللغة يساعده على تصوره لذاته، فاللغة هى الأداة التى تساعد الطفل على اكتساب اتجاهات الغير، ويصبح الطفل واعيًا بذاته عن طريق تبينه لاتجاهات الغير نحوه وعن طريق تكوين مجموعة من الاستجابات المنظمة نحو

اتجاهات الغير. ويمكننا أن نتبين هذه الأمور بشكل واضح فى لعب الأطفال، فالطفل قد يتخيل شيئًا ما -على أنه طفل صغير يحادثه- بالاستحسان والاستياء، وهو فى هذا يتقمص دور أبيه وأمه، فيستحسن منه ما يستحسنه الأبوان، ويعبر عن استيائه وينهره عن الأشياء والأفعال التى ينال هو عليها استياء أبويه، وكذلك قد يحمل الطفل صندوقًا ويتخيل نفسه بائعًا متمثلاً والديه فى عملية الأخذ والعطاء مع البائع وهكذا.

ويمكن القول أن الاتجاهات التى يتبناها الطفل فى البداية تكون ممثلة للأشخاص الذين أخذها عنهم، وتكون ذاته فى مثل هذه المواقف مرتبطة بالشخص الذى يقوم بدوره، وهذا يعنى أن الطفل فى البداية يكون له ذوات تتعدد بتعدد المواقف والأشخاص الذين يتقمص أدوارهم.

غير أن الأمر فيما يتعلق بنمو تصور الطفل لذاته وتكوين هذه الذات لا يتوقف على تبنى اتجاهات منفصلة لشخصيات يتقمصها تتغير بتغير الشخصيات والمواقف؛ ذلك لأن الطفل يتعامل مع جماعات متكاملة، جماعة الأسرة، وجماعة اللعب، وهو يتفاعل مع هذه الجماعات أخذًا وعطاء يكتسب خبرات جديدة، ذلك لأن أعضاء هذه الجماعات ترتبط أدوارهم الاجتماعية معًا، ولابد لكل فرد أن يدرك دوره ودور الآخرين، وما يتوقعه هو من الآخرين وما يتوقعه الآخرون منه، ولابد أن تتوحد اتجاهاتهم نحو العمل أو النشاط التعاونى الذى يسهمون فيه سويا. ولعل أوضح موقف يمثل هذه العملية -كما يشرح "جورج ميد"- هو التعاون فى فريق اللعب المنظم، حيث يجب على كل عضو أن يتوقع سلوك بقية أفراد الفريق بالنسبة لبعضهم البعض وبالنسبة له شخصيًا، ولابد أن يدرك الهدف العام الذى يسعى الفريق لتحقيقه. ونفس الموقف يتكرر داخل الإطار الأسرى، ولكن بدرجة أقل من الوضوح فى ذهن الطفل، ومع هذا، فهو يتمكن خلال التفاعل من إدراك الأدوار -الحقوق والواجبات- المناطة بكل عضو وموقعه هو منها، ويستطيع أيضًا أن يوحد الاتجاهات الأساسية لاتجاهات أعضاء الأسرة فى كل متكامل، وأن يكون اتجاهاته ويعدل أنماط

سلوكه على أساس هذا الإطار العام. ومعنى هذا أن الذوات المتعددة التى تتكون لدى الطفل نتيجة ارتباطه بأفراد آخرين مختلفين تتكامل معًا فيما يمكن أن نطلق عليه «الآخر المعمم Generalized»، وبعد أن يستدمج الطفل هذه الاتجاهات والقيم الواردة إليه أصلاً من الآخرين، ينسى الطفل هذه الحقيقة، وتصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصيته، توجه سلوكه وتشكل أحكامه بشكل تلقائى، وبهذا الشكل يكون للطفل الذات المستقلة، غير أنه كثيراً ما يعرض للطفل مواقف جديدة، وهو ما قد يعرض أيضًا للراشد وهو فى هذه الحالة يحاول أن يفهم اتجاهات الآخرين وتوقعاتهم منه وتحديد معنى الموقف (فى ضوء خبراته الماضية) قبل أن يقوم بدور ويتخذ قراراً فى هذا الموقف الجديد.

الذات كنتيجة للتفاعل الاجتماعى

ونستطيع القول أن عملية التنشئة الاجتماعية -خلال مرحلة الطفولة المبكرة- تسهم فى تكوين ذات الطفل، وأن يكون صورة معينة لذاته، تتضمن مجموعة المعتقدات والقيم والاتجاهات التى تحدد مواقفه وتوجه سلوكه تجاه نفسه وتجاه الآخرين، فالذات والشخصية بهذا الشكل تعد نتاجًا للتفاعل الاجتماعى مع الآخرين، ونتيجة لاستدماج قيم واتجاهات ومفاهيم هؤلاء الآخرين (الآباء، الإخوة والأقارب فى المحل الأول). وقد كشفت الدراسات التى عالجت نمو الألفاظ المعبرة عن الذات (أنا، لى، ...) والتى تشير إلى وعى الطفل بذاته، عن صدق تلك النظرية الذاهبة إلى أن سلوك الأفراد المحيطين بالطفل وتفاعلهم معه هو الذى يحدد اتجاهات تكوين ذات الطفل ويشكل شخصيته، وأن وعى الطفل بالأفراد المحيطين به واستخدامهم لأسمائهم يأتى قبل إدراكه لاسمه واستخدامه له. كذلك كشفت هذه الدراسات أن الطفل يتعلم استخدام كلمة «أنا» التى تعبر عن الذات نتيجة لتفاعله مع غيره، وأن الكلمات التى تشير إلى الذات وتعبر عنها لا تأخذ معناها إلا من المجال الاجتماعى الذى يتفاعل معه الطفل، ولا يمكن تصور كلمة «أنا» فى حالة العزلة؛ لأنها عادة ما توجه للغير، وبالتالى تكتسب من التفاعل مع هذا الغير.

دور المدرسة فى عملية التنشئة الاجتماعية

تبدأ مرحلة المدرسة بعد مرحلة الطفولة المبكرة، ومع بداية مرحلة الطفولة المتأخرة، ويمثل انتقال الطفل من مجتمعه الصغير (الأسرة) أو مجتمع القرابة، إلى مجتمع المدرسة نقلاً وتحولا كبيراً فى حياته النفسية والاجتماعية، فالمدرسة مجتمع الغرباء، مجتمع أوسع يمثل بيئة جديدة بعلاقات وصلات وأسس جديدة، لها قوانينها، ويطالب الطفل فيها بواجبات لم يألفها فى المنزل، مما يضطر معه الطفل إلى التضحية بالكثير من الميزات التى كانت له فى الجو الأسرى.

فبينما كان فى المنزل يحتل مركزاً متميزاً، يصبح فى المدرسة مجرد طفل عادى، معرض للثواب والعقاب، على أساس القواعد العامة، وعلى أساس الأخذ والعطاء، وليس الأخذ فقط كما كان الحال داخل الأسرة، وقبل هذا كله فإن المدرسة تعنى الانفصال -لأول مرة - من الوالدين، خاصة الأم. ويعد الانتقال من البيت إلى المدرسة حدثًا كبيراً فى حياة الطفل النفسية، له آثاره الكبيرة على شخصيته وخلقه وسلوكه الاجتماعى. فهو يضطر لأول مرة لأن يخضع لنظام عام، وسلطة تختلف عن سلطة الوالدين، وأن يتخلى عن المركز المتميز الذى كان يحظى به داخل الأسرة، وعليه أن يتعلم النظام وآداب الحديث وعدم مقاطعة غيره، وأداء ما يكلف به من واجبات، والتعاون مع غيره، والتعامل بأصول مرعية مع الآخرين، فالمدرسة هى نموذج للمجتمع الواسع الذى سيتعامل معه الطفل فيما بعد.

ويذهب "بياجيه" إلى أن إبراز أثر للمدرسة الابتدائية فى مجال التنشئة الاجتماعية للطفل؛ القضاء على ما يتسم الطفل به من تمركز حول الذات نتيجة للعلاقات الأسرية. فالطفل حتى السابعة يكون شديد الخضوع لحاجاته ودوافعه، غير قادر على تأجيل رغباته، يعجز عن الاهتمام بمشاعر الغير وحاجاتهم. غير أن دخوله للمدرسة يضطره إلى إخفاء ظاهرة التمركز حول الذات، والاهتمام بالآخرين

والتعامل مع زملائه على أساس مبدأ الندية وإلى الاهتمام بالمدرسين وبالتقاليد المدرسية وبالنظام لأول مرة فى حياته.

وتحتل المدرسة أهمية كبرى من الناحية التربوية؛ لأنها قادرة على التأثير بشكل إيجابى على شخصية الطفل إن قامت بأداء رسالتها على خير ما يرام. فالمدرسة يمكنها من الناحية التربوية أداء الوظائف والمهام التالية:

١- تستطيع أن تدعم كثيراً من المعتقدات والاتجاهات والقيم الحميدة، التى تكونت فى البيت، وفى مقدمتها عقيدة التوحيد والقيم والنماذج السلوكية الإسلامية.

٢- يمكن للمدرسة أن تمحى أثر بعض العادات والقيم غير السليمة التى اكتسبها الطفل من البيت، فمازال الطفل فى المدرسة الابتدائية فى مرحلة الطفولة المبكرة المرنة، قبل أن تتحجر وتتصلب القيم والاتجاهات الخاطئة.

٣- تستطيع المدرسة تعليم الطفل طرق التفاعل الإيجابى مع الغير، وتكوين علاقات اجتماعية سوية مع الآخرين.

٤- يمكن للمدرسة -ومن خلال الأنشطة التربوية الهادفة- أن تزيل بعض ما يعلق بنفس الطفل من صراعات نتيجة للصراعات المنزلية التى عاناها الطفل.

٥- يمكن للمدرسة أن تدرب الطفل على ممارسة العلاقات الإنسانية القائمة على أسس إسلامية، بطريقة منظمة مخططة.

وإذا ما انتقلنا من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية، فإننا نقابل ظاهرة المراهقة، التى تبدأ بسن البلوغ Puberity، وهى القدرة على التناسل، وهذه المرحلة تتطلب معاملة خاصة لإشباع الحاجات النفسية والاجتماعية والانفعالية للمراهق. وتشير مختلف الدراسات التطبيقية إلى قيام المدارس -المتوسطة والثانوية- بإشباع حاجات المراهق من حيث هو إنسان، يريد أن يقلد سلوك الرجال إن كان ذكراً، وتقلد

سلوك الحريم إن كانت أنثى، وأن يكون له شخصية مستقلة ومحترمة من مجتمع الكبار، كذلك يجب على المدارس فوق الابتدائية أن تتيح الفرصة للمراهق لاكتساب المهارات والاتجاهات والقيم الإسلامية السليمة، وإتاحة الفرصة لهم للتعبير عن ذواتهم والاستماع إليهم لتنمية شخصياتهم، مع استمرار الصلة بين المدرسة والبيت؛ لوقاية الطالب من الصراع، نتيجة ما قد يحدث من تعارض للقيم بين البيت والمدرسة.

والواقع أن دور المدرسة فى عملية التنشئة الاجتماعية دور خطير، فالمدرسة إحدى المؤسسات المسئولة عن بناء الشخصية التى تؤمن بالله ورسوله وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والتى تخلو من الصراعات الداخلية، والقادرة على الأخذ والعطاء، وتكوين علاقات اجتماعية سوية مع الآخرين، أى قادر على الحب والعمل والإنتاج، وهذا هو المؤمن الحق الذى يتسم بحسن الخلق، والذى يألف الناس ويألفه الناس، والذى يعمل وينتج ولا يسأل الناس إحسانًا، وتقوم المدرسة بمحاولة تحقيق أهداف وقائية وأخرى إنشائية بالنسبة للشىء.

فالأهداف الوقائية: هى التى تقى النشء كل ما يعوق نموه السليم، جسميا وعقليا واجتماعيا وانفعاليا. أما **الأهداف الإنشائية**: فتتمثل فى تزويده بالخبرات اللفظية والحركية والعقلية والاجتماعية والمهنية، مما يعينه على القيام بدوره المستقبلى بكفاءة. وينبهنا الرسول ﷺ إلى أهمية تزويد النشء بمهارات وخبرات ومعلومات، وفى مقدمتها تعلم كتاب الله وسنة نبيه الكريم، فخيركم من تعلم القرآن وعلمه، والسلوك الإسلامى القويم والسباحة والرماية وركوب الخيل....إلخ. ويجب أن توفر المدرسة مجموعة من الشروط حتى تتمكن من تحقيق هذه الأهداف الوقائية والإنشائية، بل والعلاجية (محو أثر القيم والعادات السيئة التى يكون قد تعلمها من الأسرة قبل الذهاب للمدرسة) أوجزها فيما يلى:

١- عدم التركيز على تلقين المعلومات فحسب، وإنما يجب التركيز على تنمية التلميذ

تنمية شاملة، جسميا وعقليا واجتماعيا وانفعاليا، من خلال مختلف الأنشطة التربوية والثقافية والرياضية والاجتماعية، وتنمية العلاقات الإنسانية بين التلاميذ، القائمة على الأخذ والعطاء والإيثار والتسامح فى غير ذلة والمودة والرحمة...إلخ.

٢- التركيز على التلميذ وليس المنهج، أى الاهتمام بالأحياء قبل الأشياء. فالتلميذ هو الذى يجب أن يكون محور العملية التعليمية، وذلك بإشباع حاجاته ودوافعه، ومن حاجاته ودوافعه تبدأ عملية التعليم على أساس نشاطه الذاتى، ويجب غرس العقيدة السليمة فى نفس الطفل، ومراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ.

٣- مراعاة أن يكون الجو الاجتماعى السائد فى المدرسة هو الجو الأسرى القائم على التفاهم بين المدير وأعضاء هيئة التدريس من جهة، وبينهم وبين الطلبة من جهة أخرى، والقيام بأداء الشعائر الدينية (كالصلاة) فى مواعيدها، واحترام رأى الجماعة، ومنح التلاميذ حرية المناقشة وإبداء الرأى، والمشاركة فى الإدارة المدرسية، والابتعاد عن المنافسة غير المتكافئة.

٤- الاهتمام بإعداد المدرسين، فالمدرسة تقوم أساسًا على المدرس الناجح المدرب، القادر على العطاء التربوى المثمر، ولا توجد مهنة إذا امتهنها شخص معقد الشخصية جلب على نفسه وعلى غيره أبشع الأضرار كالتعليم. فالمدرس العصابى ينشر الفزع والقلق بين تلاميذه بالعدوى، تمامًا كالمصاب بالأمراض الجسمية المعدية. وهناك مجموعة من المهارات يجب إكسابها للمدرس الصحيح نفسيا، أهمها: القدرة على الفهم والعطف والاستبصار الوجدانى فى نفوس طلابه، ومعرفة الطرق الصحيحة فى التدريس، ومعرفة البناء النفسى لطلابه، ومراحل النمو وخصائص كل مرحلة، والفروق الفردية بين الطلبة، إلى جانب أسس العلوم الاجتماعية التى تساعده على فهم تلاميذه مثل علوم النفس والاجتماع والتربية.

٥- ويجب إعداد بطاقة لكل تلميذ منذ السنة الأولى الابتدائية وتسير معه حيثما انتقل، يسجل فيها مستواه العقلى وقدراته الخاصة واستعداداته وميوله وأسلوب تفاعله الاجتماعى مع غيره، ومستوى تحصيله الدراسى واتجاهه الخلقى العام وأبرز سماته الشخصية.. مثل هذه البطاقة تعين مستقبلا على توجيهه تربويا وتعليميا وصحيا ومهنيا على أسس علمية سليمة.

٦- يجب أن يلحق بكل مدرسة أخصائى اجتماعى نفسى مدرب قادر على اكتشاف الحالات الانحرافية بين الطلبة مبكرًا، كالتخلف الدراسى أو الانطواء، أو سوء العلاقات مع الغير أو العدوان أو الانحرافات الجنسية...إلخ، ومحاولة علاجها مبكرًا، والاستعانة بالمعالجين النفسيين إذا اقتضى الأمر.

الثقافة والشخصية:

ويجدر بنا أولاً أن نحدد مفهومى الثقافة والشخصية، فالثقافة تشير فى العلوم الاجتماعية إلى كل ما يكتسبه الإنسان من مجتمعه من معتقدات وقيم وأفكار وأنماط وسلوك ولغة وعلم وفن...إلخ. والثقافة تراكمية معقدة، فهى ليست محصلة جيل واحد، ولكنها محصلة أجيال متعددة، ولها أبعادها التاريخية والعقائدية.. وأهم ما يميزها أنها مكتسبة وإن كانت تقوم على أسس فطرية تتمثل فى طبيعة التكوين المتميز للإنسان كما أراده الله سبحانه وتعالى من أجل حمل الرسالة الكبرى، وهى الخلافة عن الله والعبادة وتعمير الكون والتعارف بين القبائل والشعوب. والواقع أن ثقافة المجتمع وحدة متكاملة من المعلومات والأفكار والمعتقدات والمواصفات الاجتماعية، وطرق التفكير والتعبير والترويح، وطرق كسب الرزق، والصنائع اليدوية وغيرها من الظواهر السائدة بين أفراد المجتمع، والتى تنتقل من جيل إلى جيل، ويكتسبها الأفراد من خلال الاتصال والتفاعل الاجتماعى، لا عن طريق الوراثة البيولوجية. ولكل ثقافة جانبان: جانب مادى وهو المحصلة المادية للتفاعل الاجتماعى كالأجهزة والسيارات،

والأدوية، والمبانى، والملابس...إلخ. وجانب معنوى يتألف من المعتقدات والقيم والمعارف، والمفاهيم...إلخ. وتضم الثقافات العامة داخل المجتمعات المعقدة ثقافات فرعية مثل ثقافات: الريف، والحضر، والبدو. وتختلف هذه الثقافات باختلاف المهنة والتعليم والطبقة الاجتماعية...إلخ. وهذه الاختلافات فرعية فى إطار الثقافة العامة للمجتمع كله.

أما الشخصية، فهى جملة الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية، التى تميز الشخص من غيره تمييزًا واضحًا، وهذه الصفات تتفاعل مع بعضها لتؤلف تنظيمًا معينًا، ومن هذه الصفات ما يبرز أثره ويثقل وزنه حين نحكم على شخصية إنسان ما، وأهم هذه الصفات فى المجال الاجتماعى القدرة على التعامل مع الناس، والقدرة على ضبط النفس، والاتزان الانفعالى، ومسايرة المعايير الاجتماعية والخلقية داخل البيئة الاجتماعية. وهذه الجوانب الاجتماعية والمتعلمة خلال عملية التنشئة الاجتماعية قد تغطى على العديد من الجوانب الموروثة للفرد. فالدنيا تزخر بالكثير من ذوى العاهات الخلقية الذين تفوقوا فى ميدان أو آخر، كما تزخر بالعديد من الأذكياء الفاشلين، والذين تضاءلت شخصياتهم فى أعين الناس، نتيجة سوء علاقاتهم بالناس. ولهذا يمكن القول أن مظهر الشخصية البارز هو المظهر الاجتماعى لدرجة أن الشخصية تعرف أحيانًا أنها مجموع صفات الشخص عن غيره، خاصة من ناحية التكيف للمواقف الاجتماعية.

من هذا العرض لمفهومى الثقافة والشخصية يتضح الأثر الحاسم للتنشئة الاجتماعية على صياغة شخصية الطفل، إنسان المستقبل الراشد، كما تتضح أهمية الأسرة التى كانت -ومازال- أقوى سلاح يستخدمه المجتمع فى عملية التنشئة الاجتماعية لأبنائه الجدد، وهذه العملية الأخيرة هى فى جوهرها عملية الصياغة الثقافية للفرد، أى نقل التراث الاجتماعى والثقافى من جيل إلى جيل. وتؤكد كافة الدراسات التتبعية والإكلينيكية والإنثروبولوجية ما للتربية داخل الأسرة من أثر عميق

وخطير على تكوين شخصية الراشدين، يتضاءل دونه أثر أية منظمة اجتماعية أخرى. والأسرة هى الوسط الأول الذى ينقل إلى الطفل ثقافة مجتمعه حسب تصور الأسرة لها (معتقدات، قيم، عادات سلوكية، تطلعات، طموح، وآداب،....إلخ).

والواقع أن اختلاف ثقافات المجتمعات تؤثر بشكل واضح على اختلاف شخصيات أبناء هذه المجتمعات، وهذا هو أثر الثقافة على الشخصية. فلو كنا نشأنا فى مجتمع سيبيريا أو صقيع الإسكيمو لكانت لنا عادات وتقاليد ومُثُل تختلف اختلافًا جوهريًا عما نحن عليه الآن، بل ولاختلفت نظرتنا إلى الكون ومكانتنا منه.. والواقع أن ثقافة المجتمع تؤثر بشكل واضح فى طرق تفكيرنا وتعبيرنا عن انفعالاتنا وأساليب إرضائنا لدوافعنا، وفيما نتعلمه من معايير المباح والمحظور، والعدل والظلم، والحق والباطل، كذلك تؤثر على شكل ومضمون ما نكتسبه من معلومات ومهارات وعواطف وأذواق. كل ذلك يحدده نوع الثقافة، أهى ثقافة تحررية أم غير تحررية، تعاونية أم تزاحمية، مادية خالصة أم روحية خالصة أم وسط بين المادية والروحية، مسالمة أم عدوانية، مستنيرة أم غير مستنيرة. يضاف إلى هذا أن الثقافة – وإن كانت تنقل أسسها العامة إلى الأبناء عن طريق الأسرة– هى التى تحدد الأساليب والطرق التى يتبعها الوالدان فى تنشئة الأطفال. هل تقوم هذه التنشئة على التسامح أم التشدد؟ هل تسير على نمط سريع فتفرض على الطفل تكاليف الرجولة من عهد مبكر، أم تسير على وتيرة تدريجية متئدة؟، هل يقوم الوالدان بتربية أطفالهما، أم يتركان هذا الأمر لمربين مأجورين أو غير مأجورين؟ وعلى هذا، نستطيع القول أن ثقافة المجتمع تعيش داخلنا كما نعيش فيها، أو أننا مرآة تنعكس عليها صورة هذه الثقافة. وهذا وإن كان حقًا إلا أنه لا يمثل كل الحق، أولاً لأن الشخصية ليست شيئًا سلبيا تمامًا إزاء ثقافة مجتمعها، حيث يمكن أن تكون إيجابية ومؤثرة، وثانيًا: لأن الشخصية متأثرة بعوامل أخرى غير الثقافة وهى مجموعة العوامل الوراثية.

وإذا كانت الأسرة هى التنظيم الاجتماعى الأول الذى ينقل أهم ملامح الثقافة العامة للمجتمع إلى الطفل، فإن الواقع أنها -الأسرة- لا تستطيع أن تنقل إلى الطفل كل ملامح ثقافة المجتمع، فالطفل لا يتعرض إلا لعوامل وجوانب منتقاة من ثقافة المجتمع كما تمثلها أسرته. ويترتب على هذا أن الدعائم الأولى لشخصية الطفل تتأثر بحياته فى الأسرة، أى بالثقافة والخبرات الخاصة التى يمر بها هو وحده، مما يجعل شخصية كل إنسان تختلف فى بعض التفاصيل عن شخصية أى فرد آخر، فلكل شخص شخصية فريدة متميزة. غير أن هذا التمايز والفروق الفردية لا يحول دون وجود وحدة فى الثقافة العامة التى تحقق التكامل الاجتماعى العام بين أبناء المجتمع.

فالأسرة العادية داخل أى مجتمع تكسب أبناءها قدراً من الخصائص تتيح لهم القدرة على التوافق الاجتماعى مع ثقافة المجتمع الكلية. وهذه القضية تثير مسألة أقسام الثقافة. ففى كل مجتمع ثقافة عامة General Culture تحقق التكامل الاجتماعى داخل المجتمع، وهى مجموعة المعتقدات والقيم والمفاهيم والاتجاهات والجوانب التى يشترك فى اعتناقها أبناء المجتمع وتحقق الوحدة فى المجتمع، وهناك الثقافات الفرعية Sub-Culture التى تميز بعض المجموعات داخل المجتمع الواحد، وذلك فى إطار الثقافة العامة أو الكلية. ففى كل مجتمع نجد اختلافات واضحة بين الجماعات الممثلة للمجتمع، بسبب الاختلاف فى البيئة الجغرافية والإيكولوجية، مجتمعات محلية ريفية أو حضرية أو ساحلية أو بدوية...إلخ، وبسبب الاختلافات المهنية أو التعليمية أو العرقية (فى بعض الدول)....إلخ.

أثر الثقافات الفرعية

سبق أن أوضحنا مفهوم الثقافات الفرعية والثقافة العامة، فإذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية داخل أى أسرة من أسر المجتمع تعنى إكساب الطفل أساسيات ثقافة مجتمعه العامة، فإنها تكسبه فى نفس الوقت الثقافة الفرعية التى تنتمى إليها

الأسرة، ثقافة ريفية أو حضرية، ثقافة المتعلمين أو غير المتعلمين، أو الثقافة المهنية المحددة...إلخ.

وليس معنى ضرورة وجود ثقافة عامة داخل أى مجتمع أن شخصيات جميع الأعضاء تتشابه تشابهًا مطلقًا فى العموميات وفى أدق التفاصيل، ففى ظل الثقافة العامة الواحدة مثل ثقافة المجتمع الإنجليزى أو المجتمع المصرى، تختلف مضامين التنشئة الاجتماعية، وبالتالى تختلف الشخصيات على أساس منطقة التنشئة (البعد الأيكولوجى) ريف أو حضر أو صحراء، منطقة زراعية أو صناعية أو ساحلية، وحسب نوعية التربية (تمت التربية فى الأسرة الطبيعية أو أسرة بديلة، فى وجود الوالدين معًا وعلاقاتهما طيبة أو فى ظل علاقات مفككة أو انفصال الوالدين...إلخ (البعد الأسرى). وهل تمت التنشئة فى جو أسرة مثقفة أم محدودة العدد.. يُضاف إلى هذا البعد المهنى، ويتضمن طبيعة المهنة التى يمتهنها الأب، والبعد الاقتصادى) أسرة غنية أم فقيرة. كذلك تختلف مضامين التنشئة الاجتماعية، وبالتالى شخصيات الأفراد حسب عوامل خارج الأسرة، مثل: نوعية القيم والمعاملة التى يلقاها الطفل فى المدرسة، ونوعية الأصدقاء والرفاق، من حيث أعمارهم وأخلاقهم ومعتقداتهم وقيمهم، وهل للطفل أصدقاء كثيرون، وهل يؤثر الاجتماع بالآخرين أم العزلة....إلخ هذه العوامل وغيرها تمثل الثقافات النوعية التى تؤدى إلى اختلاف شخصيات أفراد المجتمع الواحد. ولكننا نؤكد أن هذه الاختلافات النوعية تتم فى ظل الوحدة الكلية التى تكفلها الثقافة العامة، التى تحقق وحدة المجتمع العام كله.

أثر كل من عاملى الثقافة والوراثة على مضمون التنشئة الاجتماعية

أدت الدراسات الإنثروبولوجية (علم الإنسان) الحديثة إلى تغيير كثير من الأفكار القديمة، التى كانت تسود علم النفس والعلوم الاجتماعية. فقد سادت فكرة أن الإنسان عدوانى بطبعه، وأن الرجل مخلوق عدوانى مسيطر، والمرأة إنسان ضعيف

خانع يستسلم للرجل، وأن القتال والعنف غريزة فى الإنسان...إلخ، غير أن الأبحاث الإنثروبولوجية كشفت عن أن عمليات التنشئة الاجتماعية فى بعض قبائل الميلانيزيا فى جنوب شرق آسيا تؤدى إلى طراز من الشخصيات لا تعرف العدوان اليدوى، ويعبرون عن مظاهر العدوان بإقامة ولائم يطلق عليها "البوتلاتش" Potlach. وقد كشفت دراسة "مارجريت ميد" أن المثل الأعلى للرجل فى قبيلة «أرابش» فى غينيا الجديدة الوداعة والمسالمة والرقة كالنساء تمامًا، بعكس الحال فى قبيلة «موندوجومر» حيث أن المثل الأعلى للرجولة هو الخشونة والفظاظة والعدوانية. أما فى قبيلة «تشامبولى» وهى قبيلة مجاورة، فالرجل يمثل الوداعة، ويقوم بالأعمال اللينة كالنقش والحفر والرقص، فى حين تقوم المرأة بالأعمال الخشنة مثل صيد الأسماك ونسج الشباك، والمرأة -على الرغم من أن المجتمع أبوى- هى العنصر المسيطر الآمر والناهى عدا فى مسألة الزواج. ويشير "بريتشارد" إلى أن تصور علماء النفس لمرحلة المراهقة تغيرت بعد دراسة "ميد" لمجتمع ساموا. فقد اقترنت مرحلة المراهقة فى الحضارة الأوروبية والأمريكية بالنقلة الفجائية للشخصية، والعدوان والمشكلات للمراهقين وأولياء الأمور. أما فى مجتمع «ساموا» فقد وجد أن مرحلة المراهقة تسير هناك دون صراعات أو عقبات أو تمرد أو عدوان، ودون أمراض واضطرابات نفسية. وهكذا اقتنع الباحثون إلى أن الاضطرابات النفسية والصراع والتأزم ليس خاصية مصاحبة لمرحلة المراهقة على الإطلاق، لكنها ترتبط بطبيعة الثقافة والتنشئة الاجتماعية. ولا يمر المراهق فى ظل ثقافة الأسرة الإسلامية بأية اضطرابات أو صراعات، نتيجة للإيمان بالقيم الإسلامية الأصيلة، التى تقى الإنسان والجماعة والمجتمع كله من حدوث الاضطراب أصلاً؛ لأنها ثقافة مصدرها التشريع الإسلامى الإلهى المنشأ.

أخطاء عملية التنشئة الاجتماعية

تستهدف عملية التنشئة الاجتماعية السليمة إفراز أناس أسوياء قادرين على التعامل السوى مع مجتمعهم، يؤمنون بالمعتقدات الإسلامية الصحيحة، قادرين على

ترجمتها سلوكيًا فى كل مناحى واقعهم الاجتماعى. ويقول آخر: التنشئة الاجتماعية السليمة هى التى تؤدى إلى مجتمع من الراشدين الذين لا يعانون الصراعات النفسية، والقادرين على التوافق السوى مع المجتمع المسلم. وهنا نطرح سؤالاً عن معيار السواء والانحراف، والواقع أن هناك عدة معايير، منها المعيار المثالى حسبما يضعه علماء النفس والفلاسفة من معايير، وهى مختلفة من عالم لآخر ومن مجتمع لآخر، وهناك المعيار الإحصائى، الذى يذهب إلى أن الشخص السوى هو الذى يتفق سلوكه واتجاهاته مع سلوك واتجاهات غالبية أبناء المجتمع، وهناك المعيار الطبى النفسى الذى يركز على الخلو من الصراعات والأزمات النفسية اللاشعورية...إلخ.

ويمكن القول بفساد هذه المعايير جميعها. فالاستواء لا يتمثل فى التطابق مع مثاليات وضعية من صنع البشر؛ لأنها تختلف باختلاف البشر وباختلاف المجتمعات، كذلك فإن الاستواء لا يتمثل فى مطابقة سلوك ومعتقدات وقيم الأغلبية، فقد تكون الأغلبية منحرفة عن الصواب، أى منحرفة عن العقيدة والقيم الإسلامية، وهى وحدها العقيدة السليمة. كذلك قد يخلو الإنسان من الصراعات لكن يشرب الخمر ويأتى الفواحش.. والمعيار الوحيد المقبول للاستواء هو المعيار الإسلامى، فما يتفق مع مبادىء الشريعة الإسلامية يعد سويًا، وما يخالفه يعد منحرفًا، والتربية الإسلامية داخل المجتمع المسلم تحقق للإنسان الخلو من الصراعات الشعورية واللاشعورية، كما تحقق للإنسان القدرة الإيجابية على المشاركة والتوافر السوى مع نفسه وأسرته ومجتمعه ومهنته...إلخ.

وقد تقع الأسر فى بعض الأخطاء التى تؤدى إلى معاناة الأبناء فى الكبر من مشكلات نفسية وسلوكية، منها إهمال الأم للأطفال. ويذهب بعض العلماء مثل "بولبى" إلى أن حب الأم للطفل ورعايتها المعتدلة فى مرحلتى الرضاعة والطفولة له من الأهمية فى إرساء قواعد الصحة النفسية للطفل ما للفيتامينات من أهمية الصحة الجسمية.

ومن الأخطاء التى يقع فيها الآباء والمربون معاملة الطفل على أنه راشد، متجاهلين أو جاهلين خصائص وحاجات مرحلة الطفولة. ولهذا يجب على الآباء والمربين معرفة الطفولة وخصائصها، وهذه المعرفة تتضمن ما يلى:

١- معرفة دوافع الطفل وحاجاته الأساسية، وما يترتب على إحباطها من مشكلات وأزمات نفسية.

٢- معرفة المنطق الخاص بالطفل وطريقة تفكيره ونظرته الخاصة إلينا وإلى العالم المحيط به.

٣- إدراك أهمية مرحلة الطفولة، وضرورة توافرالجو الأسرى الحانى على الطفل. وأهم الحاجات النفسية للطفل- التى يجب الحرص على إشباعها- هى الحاجة إلى التوحيد (الحفاظ على الفطرة) وإشباع الحاجات العضوية، والحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى التقدير الاجتماعى، والحاجة إلى توكيد الذات والتعبير عنها، والحاجة إلى الحرية والاستقلال، والحاجة إلى الاستطلاع واكتساب الخبرات، والحاجة إلى اللعب...إلخ.

ويمكننا هنا التنبيه إلى أهم جوانب الخطأ التى قد يقع فيها الآباء والمربون خلال عملية التنشئة الاجتماعية وهى:

أولاً: القسوة والنبذ

وتؤدى التربية المتعنتة القاسية إلى كراهية الآباء والسلطة الأبوية، وكل ما يمثلها مستقبلاً، والصرامة فى التربية تؤدى إلى خلق ضمير صارم قاسٍ يشعر الإنسان دائمًا بالذنب للصغيرة والكبيرة بشكل يؤرق حياته. وطاعة الأطفال ورضوخهم للتربية القاسية ليس معناه الأدب لكن الرضوخ. وخطر نبذ الطفل وإهماله أو التنكر له وتهديده باستمرار والسخرية منه، هو توليد الرغبة فى الانتقام فى نفس الطفل، وحقده على الأسرة والمجتمع. وقد لوحظ أن نبذ الطفل عامل مشترك فى كل حالات جنوح الأحداث.

ثانيًا: التراخى والإسراف فى التدليل

ومن صور التدليل: عدم تدريب الأطفال على الالتزام بقواعد وقيم معينة، وعدم تحمله أية مسئولية، والتسيب المطلق فى السلوك فى معاملته لأفراد الأسرة، مواعيد الطعام، استذكار الدروس...إلخ، وتلبية كل طلبات الطفل وحاجاته. والمشكلة هنا أن الأب والأم المتسيبان نموذج سيىء وقدوة فاسدة أمام الطفل، إلى جانب أن مثل هذه التربية تعود الطفل على الأخذ دون العطاء، وهو مخالف لما سيواجهه الطفل مستقبلاً، وهذا يؤدى إلى شعور الطفل بالنقص والفشل عندما يبدأ فى الخروج خارج معاملات الأسرة، ويواجه بواجبات لم يألف مثلها من قبل. والدليل يؤدى إلى شخصية رخوة تضيق بأهون المشكلات ولا تطيق مواجهة الصعاب. وصدق رسولنا الكريم ﷺ عندما يوجهنا إلى الخشونة: «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم». والطفل المدلل يتوقع من رؤسائه التغاضى عن أخطائه، فإن حاسبوه عليها شعر بالاضطهاد والظلم. وهنا تجدر الإشارة إلى أن التربية الصحيحة هى التى لا تجيب كل حاجات الطفل، وتعلمه الأخذ والعطاء، وضرورة التعلم كيف يتنازل عن بعض رغباته، وترتيب هذه الرغبات فى شكل أولويات وتحقيقها حسب الإمكانات المتاحة.

ثالثًا: التذبذب فى معاملة الأطفال

يؤدى التذبذب فى معاملة الأطفال (مدحه على شىء - سلوك اليوم نعاقبه عليه الغد والعكس) إلى اختلال معايير الاستواء والانحراف فى نفس الطفل، فلا يعرف الطفل هل هذا السلوك صحيح أم خطأ؛ لأنه مرة يكافأ عليه ومرة أخرى يعاقب عليه، هذا إلى جانب أنه يفقد الثقة فى والديه وهما القدوة أمامه، بالإضافة إلى اهتزاز قيمة العدالة فى نظره، وهذا لا يعينه على تكوين فكرة ثابتة عن ذاته وسلوكه وخلقه، ويجعله دائمًا فى حالة قلق وحيرة.

رابعًا: الصراع المستمر بين الوالدين

هذا الصراع يجعل الطفل يعيش فى جو من القلق وانعدام الأمن، إلى جانب فقدان الثقة فى الوالدين، وفى ممثلى الوالدين أو السلطة الأبوية مستقبلاً، بل وفى الناس جميعًا، ويجعل الطفل حائرًا بين أبيه وأمه، وهذا النزاع يعطى الطفل فكرة سيئة عن الأسرة والحياة الزوجية، مما ينعكس على حياته الأسرية ومعاملته لزوجته وأبنائه مستقبلاً. ويؤكد خبراء علم النفس أن الطلاق فى هذه الحالة أفضل بالنسبة للصحة النفسية للأولاد.

خامسًا: التلهف والقلق المفرط على الأطفال

وهذه اللهفة والقلق يؤديان إلى معاملة الطفل بإفراط وحساسية وتقيد حركته بشكل يشل حركته، خوفًا من أن يصاب، فيحرم من اللعب مع رفاقه أو من الخروج من المنزل، أو مقابلة الغرباء، والإكثار من ملابسه حتى لا يصاب ببرد...إلخ، الأمر الذى يسهم فى إيجاد شخصية قلقة منطوية غير اجتماعية، بل وسقيمة لعدم ترك الطفل على الطبيعة يؤثر ويتأثر، ويكتسب المناعة الطبيعية ضد الأمراض الجسمية والاجتماعية والنفسية.

سادسًا: عدم مراعاة التنميط الجنسى أثناء التنشئة الاجتماعية

ويقصد بهذا التنميط تربية الأبناء الذكور على ممارسة السلوك المقبول من الذكور، ومعاملتهم على هذا الأساس، ونفس الأمر بالنسبة للإناث. وكثيرًا ما يحدث أن يعامل الآباء الأبناء الذكور معاملة الإناث ويلبسونهم الملابس الأنثوية، نتيجة لبعض المعتقدات الخاطئة، كما قد يجد الطفل نفسه وسط مجموعة من الأطفال والأفراد كلهم من الجنس الآخر، فيتعود استخدام الكلمات التى تعبر عن الجنس الآخر عندما يتكلم عن نفسه. ومن أجل بناء شخصيات إسلامية صحيحة نفسيا وجسميا، يجب توجيه الآباء والأمهات إلى أسس التربية، وممارسة العمل التربوى

الإسلامى المتميز فى المدارس وكافة مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى، إلى جانب الاهتمام بعلاج الحالات الانحرافية مبكرًا.

أهداف التربية الإسلامية

تبدأ التربية الإسلامية بتهذيب الفرد ضمانًا للمجتمع الصالح، كما أنها تبدأ فى الدنيا تحقيقًا لصالح الإنسان فى الدنيا والفوز برضوان الله وجنته فى الآخرة. وفيما يلى نوجز أهم أهداف التربية الإسلامية:

أولاً: الحفاظ على الفطرة السليمة وتنميتها من خلال تعريف الإنسان بخالقه، وبناء العلاقة بينهما على أساس ألوهية الخالق وعبودية المخلوق. قال تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

ثانيا: تطوير سلوك الفرد، وبناء أو تغيير اتجاهاته اللفظية Verbal attitudes والعملية السلوكية Action. A. بحيث تتسع وتتطابق مع السلوك والاتجاهات الإسلامية:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[الأعلى:١٤-١٧].

ثالثا: إعداد الفرد لمواجهة متطلبات حياته فى هذه الدنيا ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[الأنبياء:٨٠]. وهذا هو ما يطلق عليه اليوم الإعداد المهنى للحياة.

رابعًا: بناء المجتمع الإسلامى الصالح الذى تقوم نظمه على أساس شريعة الإسلام، استنادًا إلى الكتاب والسنة. يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

obeikandi.com

خامسًا: إعداد المسلمين لحمل الرسالة الإسلامية ونشرها في العالم كله، حتى ينتشر الحق وتعلو كلمة الله في الأرض. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٠٤].

سادسًا: غرس القيم الإيمانية الإسلامية في نفوس النشء، مثل وحدة الإنسانية، والمساواة بين البشر. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[المؤمنون:٥٢]،

والإخلاص وإحضار النية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥]،

والصبر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠]،

والصدق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:١١٩]، ومراقبة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[آل عمران:٥]،

والتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران:١٠٢].... إلى آخر هذه القيم، كالتوكل على الله والاستقامة، والمبادرة إلى الخيرات...إلخ.

وهكذا نرى أن أهداف التربية الإسلامية تحقق التكامل بين الأهداف الدينية والدنيوية، كما تحقق التفاعل الخلاق واللقاء الدائم بين الإنسان وخالقه، بين القلب والعقل، بين الدنيا والآخرة.

أهم الأسس العامة التى تقوم عليها التربية الإسلامية

يمكننا إيجاز أهم أسس التربية الإسلامية فيما يلى:

أولا: التربية الإسلامية تحقق النمو المتكامل المتوازن لشخصية الإنسان:

فالتربية الإسلامية لا تركز على جانب واحد من الشخصية (الروحى أو العقلى أو الجسمى أو الانفعالى أو الاجتماعى)، وإنما تهتم بجميع هذه الجوانب معًا. فقد أنزل الله -سبحانه - الإنسان من الجنة إلى الأرض، والمعيشة الأرضية تحتاج إلى إشباع حاجات النفس والعقل والروح والجسم معًا. يقول تعالى: ﴿ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]. وقد سبق ورأينا أن مفهوم التزكية يشمل النفس والعقل والجسم معًا. فالإسلام يطالبنا بصحة الأبدان «إن لبدنك عليك حقًا»، وبالحفاظ على السمع والبصر والفؤاد ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء:٣٦]. والإسلام يخاطب عاطفة الإنسان وقلبه ووجدانه، واعتبر أن العلم أحد المعايير الحاسمة للتمايز بين البشر، كما يتضح من العديد من آيات العلم التى سبق أن أشرنا إليها، والتقوى ذاتها تقوم على العلم بالكتاب والسنة. وبوجه عام نستطيع القول إن التربية تحرر الإنسان نفسًا وروحًا وعقلاً وجسمًا..

ثانيا: التربية الإسلامية تحقق للإنسان التوازن

ويتضح هذا فى قول الرسول ﷺ أنه يرفض التطرف فى العبادة، وأنه يقوم وينام ويصوم ويصلى ويفطر ويتزوج النساء. وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]. والإسلام يحرص على تجريد الإنسان من الأنانية «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». (أو قال لجاره) (أخرجه مسلم ١/ ٦٧). وقد أقر الرسول ﷺ قول سلمان الفارسى لأبى الدرداء أخيه فى

الإسلام: «فإن لجسدك عليك حقًا وإن لعينك عليك حقًا وإن لزوجك عليك حقًا» (أخرجه البخارى ٣/ ٢٦١).

ثالثًا: التربية الإسلامية تربية فكرية وسلوكية وعملية معًا

تتعدى العقيدة الإسلامية مجال القلب إلى العمل، فالإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وكثيرًا ما اقترن العمل الصالح بالإيمان فى آيات القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ومبادىء الإسلام الخمسة من شهادة بأنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.. كلها تتطلب ترجمة الإيمان إلى سلوك. ويذم من المسلم أن يقول خلاف ما يفعل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[الصف:٢-٣].

رابعًا: تجمع التربية الإسلامية بين الطابع الفردى والاجتماعى معًا

تركز التربية الإسلامية على تنشئة الفرد على الفضيلة، وعلى تحمل المسئولية، فكل امرىء بما كسب رهين، وكل مسلم راع وكل راع مسئول عن رعيته. فالمسئولية فى الإسلام مسئولية فردية، كل إنسان مسئول أمام الله سبحانه عن أعماله بعد أن منحه عقلاً وأرسل له الرسل للهداية، وأنزل إليه الكتب، وبين له طرق الخير والشر، وأعطى له الجهاز الذى يميز به وفطره أصلاً على التوحيد، ولكن هذا لا يعنى التطرف فى الفردية المطلقة؛ لأن الإسلام يربى الفرد ليعيش فى مجتمع يكفل له الإسلام العدل والإخاء والتكامل والتكافل والقوة...إلخ. فالمسلم أخو المسلم، والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا. وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يستر عبد عبدًا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» (رواه مسلم: ٤/ ٢٠٠٢). وعن أنس -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه (أو قال لجاره) ما يحب لنفسه» (أخرجه مسلم: ١/ ٦٧). وعنه قال: قال رسول الله

ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه -أو تمنعه- من الظلم فإن ذلك نصره» (رواه البخارى: ٤/ ٢٠٢).

وتؤكد التربية الإسلامية على أهمية القدوة والوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه الشخص على فكره وسلوكه. فمثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير. وقد أكد ﷺ على أثر الأسرة فى التنشئة الاجتماعية للفرد فى الحفاظ على الفطرة أو تشويهها وطمس معالمها، فما من مولود -كما يحدثنا الرسول ﷺ- إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه (أخرجه البخارى:٤/ ١٤٤). ويقول ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن». (أخرجه ابن عدى فى كتاب الكامل).

خامسًا: التربية الإسلامية تنشىء الفرد على مراقبة الله سبحانه

فالتربية الإسلامية تعمل منذ اللحظة الأولى على غرس الدوافع الإيمانية فى نفس الفرد، تلك الدوافع التى تملك عليه فكره وسلوكه. فهو يراقب الله فى عباداته وعمله وأكله وشربه وزواجه وعلاقته بزوجته وأبنائه...إلخ. فاستقامة المسلم تنبع عن الإلتزام الداخلى؛ لأنه يعلم أن الله مطَّلع على كل أموره ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر:١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾[آل عمران:٥].

سادسًا: التربية الإسلامية تحافظ على فطرة الإنسان النقية وتعلى غرائزه الفطرية

تحافظ التربية الإسلامية على فطرة الإنسان النقية، فكما يخبرنا الرسول ﷺ ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، وقد خلق الله -سبحانه- عباده حنفاء. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بني آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أن تقولوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس:٧-١٠].

وهنا تبرز أهمية التربية فى تزكية النفس وتطهيرها، ودعم جانب التقوى ومقاومة جانب الفجور، والحفاظ على فطرة الله التى فطر الناس عليها. والإسلام لا يقف ضد رغبات الفرد المادية، لكنه ينظم ممارستها حسب الشريعة بما يحقق صالح الفرد والمجتمع، ويعلم الإسلام الفرد المؤمن الصبر وقوة الإرادة والتحكم فى رغباته، والقدرة على تأجيلها، وهذا هو مؤشر النضج الانفعالى . ويوجه الرسول ﷺ الشباب إلى الزواج لمن يستطيع، وإلى الاستعانة بالصوم لمن لا يستطيع. قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (رواه البخارى: ٢/ ٢٣٨). وهذا هو إعلاء الغرائز فى أسمى صورة. ويوجه الإسلام الشباب المسلم لقضاء أوقات الفراغ فيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالنفع، كالتربية الرياضية، والقراءة،....إلخ.

سابعًا: التربية الإسلامية موجه نحو الخير

يستهدف الإسلام أساسًا تقدم الإنسان وتمتعه بالخيرات والصحة.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

ولا يوجد معيار للتمايز بين البشر غير التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. والعلم والعمل الصالح. وتستهدف التربية الإسلامية تربية المسلمين على تمثل القيم التى تكفل لهم الفلاح فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة، وفى مقدمتها:

الإخلاص وإحضار النية ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥].

والصبر، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

والصدق، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].

ومراقبة الله والتوكل عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم:١١].

والاستقامة ﴿فاستقم كما أمرت﴾[هود:١١٢].

والتعاون على البر والتقوى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[المائدة:٣].

والنصيحة المتبادلة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[النور:١٩].

والعدل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[النحل:٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:٩].

ثامنا: التربية الإسلامية تربية مستمرة

فهى لا تنتهى بفترة زمنية معينة، وإنما تمتد من المهد باستمرار؛ لتحصيل المزيد من العلم والمعرفة ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء:٨٥]. كما تدعو إلى إعمال البصر والعقل فى الكون المادى والعالم الاجتماعى، من أجل التقدم فى فهمها وتحقيق حياة إنسانية أسعد على هذا الكوكب. والحياة لا تسير على وتيرة واحدة، فهى فى تغير مستمر، ولابد على الإنسان أن يساير هذا التطور، بل وأن يقوده من خلال إعداد الشباب المؤمن المتعلم المنجز.

تاسعا: التربية الإسلامية تربية عالمية منفتحة

فالإسلام دين لكل البشر، وليس لأقوام محددة كما هو الحال فى الديانات السابقة عليه، وهو يرفض التعصب، ويتجاوز الانغلاق الطبقى أو العرقى أو اللونى أو الغنوى، ويقر معيارًا عامًا للتمايز فى متناول الجميع وهو التقوى «لا فضل لعربى على

أعجمى إلا بالتقوى». ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

وورد عن النبى ﷺ قوله: «كلكم لآدم وآدم من تراب». والتربية الإسلامية يتساوى فيها كل البشر، لا تستأثر بها طبقة دون طبقة أو فئة دون فئة، وليس فيها أسرار كما فى بعض الديانات، والمسلمون يتساوون وسعى بذمتهم أدناهم، وهم به على من سواهم من الكفار. ومنذ المرحلة الأولى فى العهد المكى والمسلمون قلة قليلة تعد بالأفراد، قلة مطردوة من كل حمى إلا حمى الله الواحد القاهر فوق عباده.

يقر القرآن الكريم عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها فيقول تعالى فى سورة مكية من أوائل السور وهى سورة التكوير: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[التكوير:٢٧]. فهى دعوة للعالمين وليس لقريش ولا لأهل مكة ولكنها لكل البشر، دعوة لا تعرف حدود الوطن أو العنصر أو القبيلة، فهى تخاطب الإنسان كإنسان كائنًا من كان وحيثما وجد.

عاشرًا: التربية الإسلامية تجمع بين المحافظة والتجديد

فهى محافظة بالنسبة لمجال المعتقدات وما تقوم عليه من مبادىء سماوية خالدة، وتقاليد راسخة، وقيم عريضة، وترفض البدع. يقول تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر:٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١]

وحذر ﷺ من محدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة. وإذا كانت التربية الإسلامية تحافظ على الأصول العقدية والتشريعية، فإنها تدعو إلى التجديد من أجل الوفاء بمطالب الحياة المتغيرة فى كل عصر، بشرط الالتزام بالأصول العامة.

❊ ❊ ❊